ففي عصر سقوط الهيمنة الرأسمالية ، عصر الحروب والثورات ، تدمج قضية التحرر بالتحرر العام . او تبقى مجرد انقلاب يريد اجهاض ثورة. اي تبقى مجرد تحرر كاذب ، يتستر بقضية جانبية لكي يخفي القضية الاساسية ، هكذا لم يعرف شعر قباني المرارات الا في المناسبات ، العدوان الثلاثي ، ثورة الجزائر ، هزيمة ٦٧ . وبقي يدور وكأنه فلك مستقل لا يخضع الا لجاذبية تاريخه الشعري . يختفي خلف قدسية الشعر وجماليته الخاصة ، او يرفض هذه الجمالية ، لكنه في قبوله او رفضه لا يطرح قضية فنية . الا قضيته الاولى، جماهيرية الشعر ، انطلاقا من قدرة الشاعر على صياغة موضوعه الجماهيري داخل لغة القصيدة المختلفة .

داخل هذين العنصرين ، تقوم بنية القصيدة النزارية ، ترفض الشكلية لتبقي على الاساس في الشكل القديم . وترفض الجاهز لتقيم هي تقليدها الجاهز. فدخلت قصيدة نزار قباني التاريخ الشعري العربي المعاصر ، بوصفها لحظة في تطور القصيدة العربية . دخلت بانحناءاتها وطراوتها وبكلاسيكيتها الجديدة ، بهدوء . لم تثر نقاشات فنية بقدر ما اثارت نقاشات سياسية واخلاقية . هكذا ينجح الشاعر وتسقط القصيدة. ويصبح نزار قباني ظاهرة شعرية خاصة في مبلغ جماهيريته .

من الفئة الى اللالغة : تخدم هذه الملاحظة التي رفعناها ، كمقدمة لدراسة تفصيلية لشعر قباني ونتاجه . لكنها هنا ، تكشف العنصر الاساسي الذي للغته الشعرية ، أي للعنصر الايديولوجي . واذا كانت دراسة هذا العنصر داخل القصيدة عملية بالغة التعقيد ، فان قباني يكشف لغته ، حين يعيد كتابتها نثرا . داخل ايقاع القصيدة ، تختبيء العناصر الايديولوجية وترفض الظهور ، لذلك تحتاج دراستها الى تفكيك صبور لبنية القصيدة . اما في النثر ، فتتكشف اللغة . تأتي عارية من ايقاعيتها ، لا يشفع بها سوى كلمات ترن في الذاكرة . فتنهار ، تكشف نفسها وتفضح اسرارها .

لذلك كانت قراءة كتاب قباني النثري الجديد عملية ضرورية ، لانها تساعد على الاقل ، في فك دلالات لغته الشعرية . حيث تأتي اللغة محشوة بالبعد الايديولوجي اليومي ، الذي لا تستطيع الافلات منه ، والواقع ان بعض مقالات هذا الكتاب (كان ولدي .. قصار ولدكم ، عن موت البجع والاطفال ، هل احترق بنار الشعر ؟ عيد ميلاد جرح ..) تخرج عن اطار هذه المناقشة ، لانها تنبع من ألم حقيقي ، لا نستطيع سوى احترامه وتقديره .

الاساسي في لغة قباني هو الانتقال الى اللالغة. اي انه يفرغ بشكل منظم اللغة من دلالاتها .تصبح الجملة بلا دلالة حقيقية في الوقت الذي تدل فيه على كل شيء . هذا الانتقال الى اللادلالة ، لا يعني الخروج على اللغة . بل استخدامها من اجل افراغها من مضمونها . تصبح اللغة مائعة وصابونية ، تثرثر ، تقفز من موضوع الى اخر ، وتقول كل شيء ، وترضي جميع الاطراف .

ان عملية الانتقال الى اللالغة ، ليست خاصة قبانية بشكل متميز ، انها تيار عام يجد قاعدته في التصور الخدماتي الصحفي الذي تعانيه « بيروت » بصحفها الكثيرة التي تريد ان ترضي جميع انواع الانظمة ، لذلك لا تقول شيئا . وفي القمع الفكري الذي يمارس داخل اكثر الانظمة، حتى تستحيل اللغة وسيلة تتحايل على نفسها ، تشير الى جميع الدلالات وتترك للقارىء حرية اختيار الاتجاه الذي يريد . لا يعني هذا ان لغة اللالغة هي لغة حيادية . انها لغة بكماء ، لكنها في الوقت نفسه لغة الهيمنة الطبقية بامتياز . اذ انها تقود الى نقطة الفراغ حيث تختفي المقاييس يجد أي شيء تبريره ، هكذا نقفز من مدح هذا النظام الى مدح عدوه . ومن التغني بالمقاومة الى اكتشاف اخلاقية وزير الاردن الذي قدم بيده باقة زهر الى الشاعر ، هذه اليد التي لم تجف عنها بعد دماء الاطفال والمقاتلين في معركة ايلول ١٩٧٠ في الاردن . القفز على حبال الواقع ، هو الوصول الى تبني الشيء ونقيضه في نفس اللحظة . الجلاد والضحية يحاكمان بنفس الروحية . هذه هي لغة اللالغة . انها ليست على الحياد ، لانها تبرىء المجرم من دماء الضحية ، وتضع على عروتها اوسمة مغمسة بدماء الشعب .

تختفي الهيمنة الطبقية الرجعية خلف الصمت . انها تريد نزع سلاح لغة النقد من الشعب ، وتستبدلها بلغة مائعة . حيث تفقد العلاقة بين